بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه ، ومن تمسك بهديه وشرعه إلى يوم الدين . وبعد :

إن في أعماق التاريخ أمثلة نادرة ذات أثر بالغ في الحياة ، لا يطويها الزمان ، ولا ينساها إنسان ، وإن تخليد سيرة الرجالات العظام المشتملة على المقدرة والتفوق ، والخبرة والكفاءة المتميزة ، والنزاهة والاستقامة ، والتأثير في جوانب الحياة المتعددة واجب كل مخلص منصف غيور .

ومن أروع هذه الأمثلة سيرة أبي حفص عمر بن عبد العزيز الذي أجمعت القلوب على محبته ، والنفوس على صفائه وعدله واستقامته ، وصلاحه وإصلاحه أمور الناس ، وسطّر له التاريخ الإسلامي بأحرف من نور سيرة تفوح بالأريج المعطار في كل نواحي الحياة الخاصة والعامة ، فكان بحق كما أجمع المؤرخون خامس الخلفاء الراشدين [1] ، وإمام الصالحين العادلين ، قال سفيان الثوري : «الخلفاء خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم» .

---

(١) الراشدون : هم السالكون الطريق السوي الموصل الى الحق . وقد أشار القرآن الكريم لهذا الوصف في سورة الحجرات في قوله تعالى : ﴿أولئك هم الراشدون﴾ (آية ٧).

ذاعت أخباره ! وخلدتْ غُرَّة التاريخ اسمه ، وأترعت الكتب بحكاياته العجيبة ، وقصصه النادرة ؛ لأنه حوَّل مجرى الحياة والتاريخ ، وأحدث انقلاباً في مفاهيم الناس وتصوراتهم وسلوكهم ، وصحح أخطاءهم في ضوء الإسلام وهديه بالدعوة السامية الى الله تعالى ودينه ، وبالأخلاق الإسلامية ، وبالسياسة والحكم السديد ، وإصلاح ميزان الاقتصاد وشؤون الإدارة والمال ، فجعل طريقة الحكم على النمط الراشدي بالشورى ونشر العدل والتزام المساواة ، وأصلح شؤون المال والأرضين على وفق المنهج الإسلامي.

كتب عنه كثيراً الكتاب القدامى والمحدثون ، فزاد المعاصرون إعجاباً له ، والنشء والجيل الجديد إقبالاً على معرفة سيرته ، لكن تظل هناك جوانب مضيئة في إطار الموازنة بين رجالات الحكم تشرق من تصرفاته ، يدركها المتأمل فيجد فيها مع هموم زمانه سَلْوة المحزون ، وأمل المكروب ، وطريق الإنقاذ ، إذ قد تعبس في وجه الإنسان بعض جوانب الحياة أحياناً ، وقد يستمر الظلام الداكن ، وقد تمتلىء الأجواء بالسحب الكثيفة أحياناً أخرى ، ثم يؤذن الله تعالى من علياء سمائه ، ومقتضى حكمته، بطلوع الفجر السعيد بنوره الأبلج وضوئه الساطع المنتشر في الأفق ، فيبدد تلك الظلمات : ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة النفاق والضلال ، وظلمة الانحراف والطغيان ، فيأتي الفرج بعد الشدة ، واليسر بعد العسر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً﴾،وقوله صلى الله عليه وسلم : «لن يغلب عسر يسرين ، إن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً» [1] .

إن فجر السعد وتنفس الصعداء لهذه الأمة الذي يتكرر طلوعه بين حين وآخر كان باستخلاف عمر بن عبد العزيز الزاهد التقي ، المفرد العلم ، الخليفة الصالح ، نصير الفقراء والضعفاء والمحتاجين والغارمين . وهذا مما يثير بحق انتباه كل مسلم ومسلمة ، فيروق لكل منهما على السواء استزادة المعرفة بسيرة هذا الرجل

(١) رواه الحاكم عن الحسن مرسلاً ،وهو حديث حسن .

العظيم ، لإدراك مدى وجود التطابق فيها مع مبادىء الإسلام وأحكامه ، وعقد موازنة بينه وبين غيره من الرجال السابقين واللاحقين ؛ لأن تقويم الرجال والحكم على الأشخاص والوقائع يكون من خلال نظرة الإسلام وحده ـ حكم الإله العادل ، وحكم العقل الناضج المجرد ، وتصديق التجربة الناجحة أبد الدهر .

إن سيرة عمر بن عبد العزيز مثل حي واقعي لتطبيق الشريعة الإسلامية برمتها ، وإحياء السنة النبوية بكاملها ، والتزام سيرة الخلفاء الراشدين الغابرين بحذافيرها ، في وقت بدا فيه البعد عن هذه السيرة تدريجياً ، بين أناس عصره .
ـ إنه الآية الكبرى لأخلاق الإسلام في صورتها النقية ، فهو خير الناس كما قال الحسن البصري عنه .

ـ إنه المثل الأعلى للشخصية المتزنة الغيورة الجادّة الملتزمة منهج الحق .
ـ إنه المثل الطيب للحاكم العادل الصالح بعد أن فسد الزمان ولو في بعض جوانبه .
ـ إنه المثل الرفيع للشعور بالتبعة الكبرى والمسؤولية العظمى عن الأمة جميعها .
ـ إنه المثل الكامل لممارسة شؤون الحياة الخاصة والعامة مع النفس والأقربين والرعية .
ـ إنه المثل العالي للصلاح والاستقامة والخوف من الله وخشيته والزهد في الحياة .
ـ إنه الدليل القاطع على أن امتياز الإسلام يظهر بالتطبيق وتمثل الرجل المؤمن لتعاليمه ، فليس الإسلام مجرد نظرية مثلى خيالية غير قابلة للتطبيق والالتزام ، أو أنه طبق حيناً ثم انطوى ؟!
ـ إنه المنهاج الشامل لكل آفاق الحياة السوية ، كما أمر الله تعالى تماماً ، وأوضح القرآن ، وأبانته السنة النبوية ، وسار على دربه الراشدون .
ـ إنه بكلمة موجزة معجزة عصره في وسط شابه الفساد ، وفي عُمْر رجل لم يتجاوز سن الأربعين ، وفي مدة خلافة لم تعبر مدى ثلاثين شهراً أو سنتين ونصفاً ، بالرغم من عزوفه عنها قبل استخلافه .

وآي هذه المعجزة تتناغم وتتجلى في :

ـ إقامة العدل ، فإنه الحاكم الذي ملأ الدنيا الإسلامية عدلاً بعد أن ملئت جوراً .

ـ ورد المظالم وأداء الحقوق لأهلها وإغناء الناس والحفاظ على الأموال العامة .

ـ ومحاسبة الولاة والعمال والبعد عن المحسوبيات ومجاملة الأهل والأقارب .

ـ وإطلاق الحرية للعامل والحرية السياسية للناس قاطبة .

ـ وعدم استغلال السلطة والنفوذ وإنصاف المظلومين ومعاقبة الظالمين .

ـ ونشر الأمن والرخاء وإصلاح أجهزة الإدارة والقضاء والسجون .

ـ واجتذاب حب الناس وتعظيمهم له .

ـ وتوحيد الأمة وجمع الكلمة وتقوية الجبهة الداخلية .

ـ والترفع عن سفساف الأخلاق الاجتماعية العامة .

ـ ورضا جميع خصوم بني أمية حتى الخوارج .

ـ وسعة علمه ونضوج ثقافته ودقة خبرته ، فقد كان قوي الجدل ، معلم العلماء ، حصيف الرأي عميق الفكر .

وهكذا كان عمر رضوان الله عليه نجيب الأمة ، ومجدد دينها ، ومصلح زمانها على رأس المائة الأولى من الهجرة ، كما ألمح النبيﷺ وانطبق عليه في قوله : «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» [1] وهو أيضاً من التابعين وخير القرون في القرن الثاني بعد النبيﷺ ومن فقهاء التابعين رضي الله عنهم من الطبقة الثالثة من أهل المدينة .

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم ، والحاكم في الفتن وصححه ، والبيهقي في كتاب المعرفة عن أبي هريرة ، قال الزين العراقي وغيره : سنده صحيح ، ومن ثم رمز له السيوطي بصحته . والمراد بمن يجدد الدين أن يبين السنة من البدعة ويكثر العلم وينصر أهله ، ويكسر أهل البدعة ويذلهم . قالوا : ولا يكون إلا عالماً بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة . وقال العلقمي : معنى التجديد : إحياءما اندرس من العمل من الكتاب والسنة والأمر بمقتضاها ، واعلم أن المجدد إنما هو بغلبة الظن بقرائن أحواله والانتفاع بعلمه (فيض القدير للحافظ المناوي : ٢/ ٢٨١ وما بعدها) .

وسأعنى بالإيجابيات من سيرته المتعلقة بعصره لا بشخصه وسأبتعد بقدر الإمكان عن السلبيات إلا بما تقتضيه ضرورة الموازنة، والإشارة إلى البيئة الاجتماعية والسياسية في العصر الأموي؛ لأن الذي يهمني هو إبراز دور عمر وآثاره الراسخة في الحياة، ولأنني أحرص في شأني كله على البناء وتحسين الظن بالناس، والبعد عن الهدم، وعرقلة الجهود، وإساءة الظن، فلكل إنسان محاسن وسيئات. أما نقد من سواه من الخلفاء والحكام فلا جدوى من ورائه، ولا يصح لعاقل أن يحمل الجيل اللاحق تبعة الجيل الغابر، ولا أن تتوارث الأمة أحقاد السابقين وخصوماتهم، ولا أن تظل الأمة ممزقة الأوصال، مفرقة الجهود، موزعة الطاقات بسبب أخطاء الأسلاف: ﴿تلك أمة، قد خلت، لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ (سورة البقرة: ١٣٤، ١٤١).

خطة البحث : أبين سيرة عمر بياناً ضافياً ، مع التحليل والموازنة والاستنباط ، وذلك في فصول سبعة وخاتمة هي :

- حياته الشخصية وأسرته
- ثقافته وعلمه وتربيته
- مع القرآن والسنة النبوية والسلف الراشد الصالح
- أخلاقه وتدينه
- الولاية على الحجاز
- الخلافة والحكم
- كلماته ومواعظه الخالدة

خاتمة في آثاره الكبرى في التاريخ .

رضي الله عن عمر المنقذ والمجدد المصلح في الخالدين ، وأسكنه فسيح جنانه مع الشهداء الأبرار ، ونفع الله الأمة والناس جميعاً بسيرته على ممر الأزمان

والدهور، والله ولي المؤمنين الذين يؤمنون كعمر بقوله سبحانه: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض، ولا فساداً، والعاقبة للمتقين﴾.

الدكتور وهبة الزحيلي

obeikandl.com